عـــزلة

للأديب القصصي الفرنسي جي دي موباسان

ترجمة الأستاذ خليل هنداوي

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوى ، قال لى صديق قديم :

— هل لك بأن تجوز معى « الشانزليزيه » سعياً على الأقدام ؟

انطلقنا بخطوات وئيدة ، تظللنا أشجار فى مطلع الايراق ، وقد هيمن السكون على تلك البقعة ، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب « باريس » ، ولقد تهب نفحات باردة تضرب وجوهنا ، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية !

قال رفيق :

— لست أدرى لماذا أرى الليل — هنا — أجمل منه فى مكان آخر ؟

يخيل إلىّ أن أفكارى تتمدد فى أرجائه ، وأن فى روحى هذه المضارب من النور الدافق التى تطمعنى — خلال برهة واحدة — بأن أطلع على السر الالهى للأشياء ، ولكن سرعان ما توصد النافذة ، فينتهى باغلاقها كل شىء

وكنا بين الذهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان فى الليل أو نمر بمقعد منعزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائى إلا نقطة سوداء . همس فى أذنى رفيق :

— إنهما لا يعنيان فى فؤادى سأماً ، ولكن إشفاقاً كبيراً ، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لى إلا سر واحد يشغلنى ، وإن كل عناء فى الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين ! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة . إن هؤلاء العشاق المنطرحين على المقاعد فى الجو الطلق يفتشون

تأبين الرافعى

نشرت الرابطة العربية بياناً فى الصحف اليومية والاسبوعية بأسماء حضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتأبين فقيد المروءة والاسلام المرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى ، وبالموضوعات النثرية التى سيتناولها الأدباء فى رثائه ، وحددت موعداً لاقامة الحفلة فى شهر اكتوبر المقبل ، فتحركت لذلك عواطف أعيان الأدب وأمراء البيان وقادة الفكر فى العالم العربى وأرسل إليها بعض حضراتهم ما جادت بهم قرائحهم الوقادة إشادة بأدب الفقيد الكبير وتقديراً لآرائه وبحوثه

ولما كانت الرابطة معتزمة إصدار كتاب جامع لتاريخ حياة الفقيد ، وبعض آثاره ، وما يقال فى رثائه شعراً ونثراً تخليداً لذكراه واعترافاً بمجهوده الجبار فى خدمة المروءة والاسلام ، وليكون نموذجاً حياً للأدب الخصب والثقافة العالية فهى تأمل فى كتاب الشرق العربى وأدبائه ، وأئمة البيان فيه وشعرائه ، أن يبادروا بارسال ما توحيه إليهم ضمائرهم المؤمنة بفلسفة الفقيد الكريم ، والمقدرة لأدبه الحى الحديث والقديم ، فى أقرب وقت بعنوان سكرتير الرابطة بحدائق القبة شارع الملك رقم ١١٢ حتى يكون لدى الرابطة متسع لاصدار هذا الكتاب يوم حفلة التأبين

سكرتير اللجنة

كامل زيتونه

مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم — وما ذلك إلا عمر لحظة — ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً

إنهم يحسون هذه العزلة ، أقل أو أكثر منا ، وهذا كل شيء . منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشفت العزلة المروعة التي أحيا فيها ، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا ، ومهما عملنا ، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا ، وتجاوى شفاهنا ، وضمات أذرعنا ، فنحن دائماً نظل منعزلين

إنني قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة ، فراراً من الجوى إلى بيتي ، لأنني أتألم كثيراً من العزلة التي تهيمن على المنزل ، وما عسى يجديني هذا ؟ إنني أكلمك وأنت تسمعني ، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب ، ولكنا منعزلان ...

يقول الكتاب المقدس : سعداءهم مساكين الأرواح ، إن عندهم وهم السعادة ، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل ، ولا يهيمون مثلي في الحياة ، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق ، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر ، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية

إنك لتراني مجنوناً ؛ أليس كذلك ؟

إنني بعد ما أحسست عزلة كياني ، خيل إليّ أنني أهوى يوماً فيوماً في مهوى مظلم لم يقع طرفي على حافة له ، ولم أدرك له نهاية ، وربما كان بلا غاية . فأفلتُ إليه وحدي دون رفيق معي ولا حولي ، ولا سالك طريقي المظلمة . هذا المهوى هو الحياة ، وخلال ذلك كنت أسمع صخباً عالياً وصيحات وأصواتاً فكنت أدنو من هذا الصخب المضطرب متسللاً ، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه ، وما ألفيتُ إنساناً ، وما عثرتُ على يد أخرى ترتفع في هذا الظلام المسدل عليّ

هناك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبأوا به ، منهم « موسى » الصالح :

« من جاء ؟ ومن دعاني ؟ لا أحد !

أنا وحدي ! وهذه الساعة التي تدق

يا للعزلة ! يا للشقاء ! »

ولكن العزلة — عنده — ما كانت إلا شكا طارقاً ، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هي عندي . إنه كان شاعراً ، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه . إنه لم يكن وحده أبداً . ولكني أراني وحدي

وهنالك « غوستاف فلوبير » أحد كبار أبناء الشقاء في هذا الوجود ، لأنه كان أحد عباقرته ، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة « نحن كلنا في صحراء ، لا يفهم أحد منا أحداً » بلى ! لا يفهم أحد منا أحداً ، فمهما فكروا ، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجري على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية في هذا الفضاء نرى منها على البعد سماء بعضها ، والأكثر عددا منها ضائع في اللانهاية ، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال في ذرات الجسد

وهكذا الانسان لا يدري ما يجول في صدر رفيقه الانسان وإن واحدنا لأكثر بعداً عن الآخر من هذه الكواكب السابحة ، وأكثر اعتزالا لأن الفكر لا يسبر غوره

هل تعلم شيئاً أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف في الأكوان الذي لا نستطيع إدراكه . إننا نحب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم . على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا ، ولكن جهودنا لاتزال ضائعة ، وثقتنا غير مجدية ، وعناقنا ضعيفا ، وحناننا باطلاً ، فاذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني

إنني ما شعرت أنني « واحد » إلا حين أستسلم لصديق وأفتح قلبي له . إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه . هو هنالك ، ذلك الانسان ، أرى عينيه تسطعان حولي ولكن نفسه — وراءها — لا أدركها . هو يسمعني ، ولكن فيم يفكر ؟ أجل ! فيم يفكر ؟ إنك لا تفهم هذا القلق ، إنه ربما يقليني ، أو يحقرني ، أو يسخر مني ، إنه يفكر فيما أقول ، يناقشني ، يحكم علي ، يراني أبله أو أحمق . وأنى لي أن أدرك ما يفكر فيه ؟ وأنى لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه ؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة ؟! وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن : الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته ، ولا الاستيلاء عليه ، أو الظفر به ؟

أنا ، أردت بكل نفسي أن أسلم نفسي كما هي وأفتح أبواب نفسي جميعها . ولكنني لم أقدر على هذا الاسلام كله ، لأنني أسون في أعماق نفسي « مكان ذاتي الخفية » حيث لا يظهر أحد ولا يقدر أحد أن يكتشفه أو يدخله ، لأنه لا أحد يشبهني ، ولأنه لا أحد يفهم أحداً !

أفهمتني أنت الآن ؟ كلا ! إنك لتحكم علي بالجنون ، إنك تتأمل في ، وتحترز مني ! وتسأل نفسك : « ماذا به هذا المساء ؟ ولكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم فيّ فعد إليّ لتقول لي : « قد فهمتك ! » وحينذاك تجعلني سعيداً — ولو عمر لحظة —

هن النساء اللواتي جعلنني أحسن تقبل وحدتي ، آه كم تذوقت من الألم في سبيلهن ! لأنهن منحنني ، أكثر من الرجال ، التوهم بأنني لست وحيداً !

عند ما يحب الانسان يحس أن عالمه قد اتسع ، وأن سعادة — فوق السعادة الانسانية — تغمره . هل تعلم سبب ذلك ؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة ؟ يعود مصدره الى أن الانسان اعتقد بأنه ليس وحيدا . وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الانساني قد انتهى سلطانه ، ويا للوهم !

المرأة هي أشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتة التي تأكل قلبنا المنعزل ، وهي الأكذوبة الكبرى من الحلم

إنك لتعرف هذه السويعات الجميلة التي تقضيها مع هذا الكائن الذي طالت غدائر شعره ، وواتت ملامحه أو فتكت لحاظه ، فأي هذيان يملك علينا أرواحنا ؟ وأي وهم يغمرنا ؟

أنا وهي لم نكن إلا واحداً في هذه الساعة ، ولكن هذه الساعة لن تحين ، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع ، أجد نفسي فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أي عهد مضى ! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها ، ويا لها من عزلة مروعة مؤلمة !

يقول الشاعر « سوللي برودوم » :

ليس العطف والحنان إلا هياناً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا « الاتحاد المحال » بين « الأرواح والأجساد »

وتم وداعا ، فقد انتهى كل شيء ، على أن هنالك جهدا في معرفة المرأة التي كانت كل شيء لنا ، في لحظة من الحياة ، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب ! وفي الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت في عهد اتحاد سري وامتزاج كامل للرغاب ، تنزل إلى أعماق نفسها ، وكلمة قد تكون واحدة تبدي خطأنا ، وتطالعنا — كأنها البرق الوامض في الليل — على الهاوية التي تفصل بينها وبيننا !

وهنالك ماهو خير وأحسن في الوجود ! أن تقضي أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم ، سعيداً كل السعادة ، مغتبطا بمجرد قيامها إزاءك . حاذر أن تطلب أكثر من هذا ، لأن امتزاج كائنين مستحيل

أما أنا الآن فقد غلقتُ أبواب نفسي ، لا أقول لأحد عما أعتقد ، ولا أظهر ما أفكر . أنظر إلى الأشياء ، وأنا عالم ما تحمله إليّ العزلة المروعة — دون أن أعلن عنها ، وما عسى تهمني الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات ؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة ، نفسي تتنصل من كل شيء ، وفكرتي الباطنة تظل خافية على الناس ، وعندي جمل عامة لكي أجيب بها على الأسئلة التي تلقى على كل نهار . وعندي ابتسامة تقول : نعم ! حين لا أكلف نفسي مشقة الكلام

لبثنا في مشينا حتى عرجنا في سيرنا على قوس النصر ، ثم هبطنا حتى ساحة (...) وكان يعرض فكرته متمهلاً وقد أضاعت ذاكرتي الشيء الكثير مما عرضه

وقف فجأة باسطاً يده نحو المسلة العالية المنتصبة الشامخ رأسها في النجوم المنفية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش باشارات غريبة ، وقد هتف صاحبي :

— إننا كلنا مثل هذه الأرض !

ثم غادرني دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل ؟ لست أدري : ولكن يخيل الى طوراً أنه على بينة من أمره ، وطوراً أنه قد فقد عقله

خليل الشداوي